المقدمة

المطر الماء المنسكب من السماء، والمطر ماء السحاب، والجمع أَمطار وأكثر ما يجيء فى الشعر، وقد مطرتهم السماء تَمْطَرهم مطراً، وأمطرتهم: أصابتهم بالمطر. (ابن منظور، ١٩٨٣م: مادة مطر)

والمطر هو أساس الحياة والخلق والخير والرحمة للعباد، وقد ورد ذكره بكثرة فى القرآن الكريم بلفظ الماء والغيث مصدرا للفوائد الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٢٤) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان: ٤٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (الشورى: ٢٨)

وقد أكثر العرب من استخدام المطر على الحقيقة فى أمثالهم المنوعة، فقالوا لِمن خاف فى رخاء ورغد فظن أن الناس كلهم فى مثل حاله: «يحسَبُ الممطور أنّ كلاً مطر.» (الميدانى، ١٩٥٥، ج٢: ٤١٧) وقالوا لمن حزن على ما فاته: «لا تَشِم الغيث فقد أودى النقدُ.» (نفس المصدر، ج٢: ٢٤٥) وقالوا لمن له ثروة ولايجدى على أحد: «ظلال صيف ما لها قِطارُ.» (نفس‌المصدر، ج١: ٤٤٥)

وذكر العرب للمطر فى أمثالهم نابع من عشقهم له، فهو مبعث الحياة الخصب وبه حصول معايشهم من رعى وسقى وزرع، لذلك عرفوا خصائصه وأحواله واستدلوا على نزوله بالرياح وألوان السحب، وأنواع البرق وأصوات الرعد ونَمى لديهم علم كثير وغزير عنه، وقد ورد فى كلامهم المنثور والمنظوم ما يشير إلى رسوخ هذا العلم، وعمق هذه المعرفته التى نتجت عن طول تجاربهم اليومية المستمرة.

وروى أبوحاتم عن أُبى عبيدة قال: «قلت لأعرابى ما أَسَحُّ الغيث؟ فقالَ: ما ألْقَحَته الجنوبُ ومرتهُ الصَّبا ونَتَجَتهُ الشمال. ثم قال أهلك والليل، ما يرى إلا أنه قد أخذه المطر.» (ابن دريد، ١٩٦٣م: ٦٢)

ويشهد على علم العرب الواسع بالمطر ما خلفّوهُ من ثروة لغوية تفسر عمومه وخصوصه، وشدته وضعفه، وغزارته، ودوامه وتتابعه... إلى المسميات الكثيرة التى تبين أنواعه وأحواله، ومن هذه المسميات:

١. الأمطار العامة: مثل الغيث، القَطْر، السماء، الجَدا، الخَرج، الوَدق، السَّبل، الصَّوب، الذِّهاب، الغَير، النّصر، الرَّجْع، الماعون، جارُّ الضَّبع، الثلة، الطَبَق، الطَّفل، الوَكيف، النُزل، الخدر، الحيا.

٢. الأمطار الموسمية: مثل الوَسمى، الوَلّى، الشَّتى، الدفئى، الصَّيف، الحميم، الرمضى، الخريق.

٣. الأمطار الشديدة: مثل الحريصة، الحِمرّ، الساحِية، العَجارِف، المُحتَفَل، القاعِف، القَشْرَة، البَغر، الرّاضِب، السادِحَة، السَّحّ، السَّحيفَة.

٤. الأمطار الضعيفة: مثل الرَشّ، الطَّلّ، الرَّذاذ، النَّضْح، النَّضْخ، البَغش، البطشّ، القطقط، الغَبية، الخَطْرَة، الشَمل، الشَّفيف، الهَدْمَة، الدَّثة، الدَّهان، الشَّحْذة، الضَّرب، الضَّعيف، الرَمَل، الهَميمَة، التلبيد، الحَشَكة، الحَفشَة، الخَبْطة، الرِّک، المرْزع، النّدى، النَّضِيضَة.

٥. الأمطار الكثيرة: مثل الوابل، الجَوْد، الأَهاضيب، البوق، الجلباب، الجوَرّ، الدَّجْن، الشُؤْبوب، الطوفان، العُباب، العُراق، العَدْر، العِزّ، الغِدق، الفتح، النجو، البُعاق، السحاب، التهتان، الهتلان، الهثهثة.

٦. الأمطارالدائمة: مثل الدِّيمة، الرِّهمة، الوَطفاء، الإلثاث، الإعضان، الهَفاء، العَين، الهَطْل.

٧. الأمطارالمتتابعة: الدّرار، الرّثان، الرَّصدَة، العَهْد، اليعلول. (الأنصارى، ١٩١٠م: ١٥-١٤؛ النويرى، ١٩٢٩م، ج١: ٧٧-٧٤)

وكان للشعراء وقفات طويلة مع المطر دفعهم إلى ذلک ما يعشرون به نحوه من حُب ونشوة وغبطة ورغبة ورهبة، لذلکَ تتبعوا نزوله فی دقة وعناية منذ أول بدء له حتى ينزل سيولا تغطى الآكام والوهاد، فوصفوه وصفاً دقيقاً، ورسموا له صوراً رائعة ترصد جميع مراحل تكونه، وهو سحاب يتجمع فی قبّة السماء، والرياحُ التی تلحقهُ وتحمله، والبرق المُشتعل فی أرجائه، والرعد المجلجل فی نواحيه، والأماكن التی تستقبلُه وتنعم بهطوله، والآثار التی يخلفها على الحياة، فهو دائماً ينزل فی صورة سيول عاتية تقتلع الأشجار الضخمة، وتنزل العصم من رؤوس الجبال، وتغرق الضباع والسباع، ولكنّه يخلّف بعد ذلک الخيرَ والخصب، فتخضَرُّ الصحراء وتينعُ أزهارها ونباتاتها، وتغرّد أطيارها، وتنق

ضفادعها نشوةً وفرحاً.

وقد اتبع الشعراء فى وصفهم للمطر بعض الأسس التى وضعها السابقون وتداولها اللاحقون. ويمكن تلخيصها فى الموضوعات التالية: كمناجاة الصاحب والرفيق، والسهر والأرق لمشاهدة البرق، ووصف عوامل خلق المطر من رياح وسحاب ورعد وبرق، وعملية نزول المطر فى اندفاعه وغزارته واشتداده، وآثار المطر على الطبيعة وكائناتها، والدعاء بالسقيا للأحِبَّة وديارهم.

ووضع شعراء العرب فى وصف المطر وتشبيهاته أسساً وألموا بذكره فى أشعارهم إلماماً واسعاً ومن هؤلاء الشعراء امرؤالقيس وعبيد بن الأبرص.

فامرؤالقيس ذلک الشاعر المبدع، فقد أقام بنياناً قوياً لصورة المطر، وأكثر مِن وَصْفه فى ديوانه وتغنى بصفاته حتى عدّه النقاد والشعراء: «من أجود الذين وصفوا المَطر.» (العسكرى، ١٣٥٢ق: ٤-٣؛ ابن سلام، ١٩٧٤م، ج١: ٩٤) فقد كان مبرزاً فى هذا المجال لأنه كان يصفه بحرارة عاطفته وصدق أحاسيسه وحبّه له. ففى معلقته الشهيرة يقدم مشهداً كاملاً متنامياً لرحلة المطر من السماء إلى الأرض، يشعرنا بقوة هذا المطر وغزارته واندفاعه الذى بدأه بوصف البرق وومیضه الذى يلمع كلمع اليدين، أو مصابيح الراهب، وما كان هذا البرق إلا مبشراً ونذيراً بما يحمله سحابه من أمطار غزيرة كالطوفان، ما لبثت أن انهمرت بشدة وقوة حتى غدت سيلاً عنيفاً جباراً اكتسح كل شىء وأطاح بالأشجار العظيمة وهدّم البيوت إلا ما قوى منها، وأحاط بجبل «طخية» واستدار حوله فغدا كفلكة مغزل، وغشى جبل «أبان» بأفانين ودقِه وعمّه بالخصب حتى بدا كأنه شيخ كبير قد دُثِر بكساء مخطط، ونزل بصحراء «الغبيط» وعمّها بالخصب وأنواع النبات والنور والزهر، فكأنما نزل بها تاجر يمانى فنشر ما فى عيابه من برود وأنواع المتاع والطيب، ووصف الأثر السلبى لهذا المطر الذى أحدثه سيله فى الحيوان، من سباع غرقى وعصم قد روعت وأنزلت مِن مآمنها فى أعالى الجبالِ حيث يقول:

أحارِ تــرى بَرقــاً كأَنَّ وميضَه ... كلمــعِ اليدَينِ فــى حُبى مُكَلل

يضىءُ ســناه أو مَصابيحُ راهبٍ ... أَهانَ السَليطَ فى الذبالِ المفتلِ

قَعَدْتُ لَه وصُحبتى بين ضارج ... وبيــن العذيــب بعد مــا متأمَّل

وأضحى يسُحّ الماءَ من كل فيقةٍ ... يكبُّ على الأَذقانِ دَوْحَ الكنهبل
وتيماءَ لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطمـاً إلا مَشـيداً بجَنـدل
كأن طمّيـة المُجيمـر غُـدوة ... مِن السـيل والغثاء فلكة مِغزل
كأنَّ أبانـا فـى أفانيـن ودقـه ... كبيـرُ أنـاس فى بجـادٍ مزمل
وألقـى بصحراء الغبيـط بعاعَه ... نزول اليمانى ذى العياب المخول
كأنَّ سـباعاً فيه غرقـى غَدية ... بأرجائه القصوى أنابيش عُنصل
على قَطن بالشـيم أيمن صوبه ... وأيسـره علـى السـتار فيذبلِ
وألقى ببسـيان مع الليـل بَركهُ ... فأنـزل منه العُصمَ مِنْ كل منزلِ

(امرؤالقيس، ١٩٨٤م: ٢٦-٢٤)

أما عبيد بن الأبرص فهو من الشعراء الجاهليين الذين فتنوا أيضاً بوصف المطر وأبدعوا فيه وقدموا له صوراً رائعة موحية بالحياة والحركة والنماء؛ ففى قصيدة من قصائده التى وصف فيها المطر وصفاً عاماً، ثم عاد وخصصه، نجده يتبع من الخطوات المتعارف عليها فى وصف المطر، فرياح الصبا هى التى تدفع السحاب وتجمعه، والصبا من الرياح المحببة إلى العرب لرقتها ولأنها تجىء بالسحاب والمطر وفيها الرى والخصب، وذلك لتقوم الرياح الشديدة بحلبه ودرّ مائه كما يحلب الأجير أو العبدُ النوقَ العشار، ويتجمع الرباب ويدنو ويشتعل برقه كاشتعال الحريق فى الغاب، نذيراً بسقوط مطره الذى ضاق ذرعاً به، فأخذت الرياح اليمانية تسوقه من خلفه لِتستقبله رياح الجنوب فتحل عزاليه وتريق ماءه:

سقى الرَبابَ مُجَلْجِلُ الـ ... أكنـاف لمـاحُ بُرُوقـهْ
جَـوْنُ تكركـره الصَّبـا ... وَهْنـا وتمريـهِ خرِيقـهْ
مَرْىَ العَسـيف عِشـارَهُ ... حتى إذا دَرَّت عُروقهْ
وَدَنـا يضـيءُ رَبابُـهُ ... غابـاً يضَرّمُـهُ حَريقـهْ
حَتـى إذا مـا ذَرْعُـهُ ... بالماء ضـاقَ فما يطيقهْ
هَبَّـتْ لـه مِـن خَلْفِـه ... ريـحُ يمانيـةُ تَسـوُقهْ
حلـتْ عزالِيـهُ الجَنـو ... بُ فثـجَّ واهِيـة خُروقهْ

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٩٠-٨٩)

ولو تتبعنا شعر الشعراء الجاهليين كلهم لندَرَ أن نجد شاعراً منهم لم يطرق إلی وصف المطر من قريب أو بعيد، فوصفهم لَهُ ينبع من ارتباطهم القوی به، فهو المعادل الحقيقی لحياتهم فی مجتمع يعتمد معظمه علی مياه الأمطار، فهُم يتعاملون معه بحب ورغبة ورهبة وخوف منه فی هذه الصحراء المترامية الأطراف، خاصة إذا جاء مُدمّراً مخرباً، لذلک طبع وصفهم له بطابع الحيوية والصدق والحياة.

وكان جديراً بالذكر شرح معطيات المطر كالسحاب والرعد والبرق و... وذكر مسمياتها وما يتعلق بها من الأمثال والشواهد، لكنها لم تصنع الفرصة فی هذا المقال، ونكتفی بذكر بعض الشواهد من أبيات امرئ القيس وعبيد بن الأبرص:

من أجمل الأبيات فی وصف السحاب بيت لامرئ القيس:

ديمة هَطــلاءُ فيها وَطفُ　　　طبَقُ الأَرضِ تحرّی وتدّر

(امرؤالقيس، ١٩٨٤م: ١٤٤)

قوله طبق الأرض غاية فی صفة عموم السحاب، أراد أنها علی الأرض بمنزلة الطبق علی الإناء.وأنشد عبيد بن الأبرص فی السحاب إذا كان أسود وأخضر يضرب إلی السواء فهو المحمل بالماء، الغزير الأمطار:

يا من لبرقِ أبيت الليلَ أرقبه　　　فی مُكفَهِرّ وفی سوداء مركومَهْ

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ١٢٩)

وقد تفرد امرؤالقيس بصورة رائعة تجسم لمعان البرق وضياءه، فهو الذی شبّه لمعان البرق بحركة اليدين، واختار البرق الوليف لمناسبته لحركة اليدين، لأنه يلمع برقتين.

أحارِ تــری برقاً كأنّ وميضه　　　كلمع اليدين فی حَبیّ ٍ مُكلل
يضیء سناه أو مصابيحُ راهبٍ　　　أهان السليط فی الذبال المفتل

(امرؤالقيس، ١٩٨٤م: ٢٤)

وعبيد بن الأبرص هو الذی حرص علی مراقبة البرق وتأمله، فَأرقَّ، وسهر، ولرؤيته واستطلاعه، يحدوه فی ذلک شوقه وترقبه لنزول الأمطار الغزيرة:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه　　　من عارض كبياض الصبح لمّاح
دانٍ مسفٍ فويق الأرضِ هيدبه　　　يــكاد يدفعه من قــام بالراح

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٢٤)

التوظيف الشعرى للمطر

أكثر الشعراء من توظيف صورة المطر فى موضوعاتهم المختلفة حتّى بدت واضحة جلية فى كل معالمها وجزئياتها وكانوا ينشدون فى ذلك صور الكمال والوصول إلى ما هو مثالى فى كل موصوفاتهم.

لذلك لابدّ لدارس صور الشعراء من التحليق معهم فى تصوراتهم المثالية للإنسان والكون والكائنات، حتى يمكن تحديد معالم صورة المطر، ومدى ما أفاد منها هؤلاء الشعراء فى إعلاء شأن تلك الموضوعات التى تناولوها بالوصف، والتعرف على قيمهم ومثلهم السائدة فى مجتمعاتهم القديمة، سواء فى تصورهم المثالى لجمال المرأة وحسنها، وعفتها وطهارتها، وكل ما يندرج فى ذلك من محاسن خلقية ومعنوية، وهذا هو موضوع الغزل، أو الإعلاء من القيم الرفيعة التى يتحلى بها ممدوحوهم، من كرم، وشجاعة ومروءة، ونبل، إلى آخر ما هنالك من قيم يتحلى بها الإنسان فى حياته فيمدح بها، وهذا هو موضوع المدح، كما يتحلى بها الإنسان بعد مماته فيرثى وهذا هو موضوع الرثاء، إضافة إلى أنه ينفتح المجال إلى أغراض متعددة من الشعر وظف الشعراء فيها صورة المطر خير توظيف مثل وصف الحيوان، والأطلال، والحرب.

ومن ذلك كلما يمكن القول أن الحياة والموت قد صُوِّرا فى المطر من خلال توظيف شعرى تناوله الإنسان والكائنات من حوله فى حالتى: الثبات والحركة، والجمود والتطور.

ها نحن نرى الشاعر يتخذ من المطر وسيلة لاجتياز واقع الإنسان والتحليق فيما وراء الواقع، أو بمعنى آخر لايقتصر الشاعر على ما هو كائن فحسب بل يتجاوز ذلك إلى ما ينبغى أن يكون، وبذلك نجد الطموح إلى (النماذج العليا)، إذا صحّ التعبير، فهناك المرأة العادية تقابلها المرأة المثال أو النموذج فى جانبيها الحسى وغير الحسى، وهناك الممدوح والمرثى فى نموذجيهما الواقعيين ونموذجيهما المثاليين، ولذلك رسم الشاعر ـ من خلال ـ توظيف المطر ـ الصورةَ المثالية لأبطال مجتمعه أو (نماذجه العليا).

وإذا صحّ ذلك بالنسبة للعقلاء، فهو فى الوقت نفسه ينطبق على غيرهم من الحيوان والطل والحرب وكل ما لايعقل.

إن الشاعر هنا يتخيل (مجتمعاً مثالياً) أو إن شئتَ قلتَ يصنع فى خياله (مجتمعاً مثالياً) هو صورة ما يتمناه لأمته على مستوى الإنسان وعلى مستوى الكون والكائنات باعتباره شاعر قبيلة أولا ولغة قومية ثانياً، وفى ذلک كله لاتغيب عن الشاعر الثنائية التى تعنى أن «بضدها تتميز الأشياء»، تلک الثنائية التى تعنى أن لكل شىء نموذجه الأدنى ونموذجه الأعلى. والشاعر دائماً يتجه إلى النماذج العليا، ترى إلى أى حدّ وظّف الشاعر المطر من أجل رسم صورة المجتمع المثالى الذى يتخيله.

المطر وصورة المرأة

وجد العربى الجمال فى باديته متمثلا فى مصدرين أساسيين هما: الطبيعة والمرأة، وقد فتنه جمال الطبيعة الساحر فتغنى بصحرائها وحيواناتها، ووديانها، ورياضها، وسحابها، وبرقها، ورعدها، ومطرها، وغديرها، وسيلها.

وسَحَره جمال المرأة فتغزل بمفاتنها المادية والمعنوية، ووجد أن الصلة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة صلة كبيرة، فالمرأة بمفاتنها الجميلة ترمز إلى ما فى الطبيعة من إبداع وسحر وجمال لذلک تجلت الطبيعة فى تشبيهاته وأوصافه للمرأة.

وظاهرة المطر من أهم الظواهر الطبيعية التى أثرَت فن الغزل من حيث التصوير والتعبير، ومن حيث المعانى والصفات. والمطر متغلغل فى نفس العربى يرتبط معه بعلاقة مصيرية أساسها الحياة والموت، الخصب والجدب، الغنى والفقر. والمرأة كالمطر رمز للخصب والحياة والنماء، وشوقه وحبّه لها كشوقه وحبّه للمطر، لذلک استعار لوصفها أجمل ما فى فكرة المطر من معان، فصارت كل مقارنة لديه تستمد أصولها من تقارب أو تشابه أو تناسب بينها وبين المطر.

وسنطلع هنا على استفادة امرئ القيس وعبيد بن الأبرص من ظاهرة المطر وتوابعها فى غزلهما وكيف طوّعا الصور والأخيلة المستمدة من هذه الظاهرة فى تشكيل صورة المرأة المثالية التى أحباها. ونكتفى بأنموذجين بسبب ضيق المجال.

الريق والخمر والمطر

تشكل الخمر وماء المطر صورة أخرى من صور الريق التی عنی الشعراء بها فی تشبيهاتهم وأوصافهم لريق المرأة، فجمعوا بين «المدام وغريض المزن» و«العانية وصوب الغادية» و«الخمر وماء الندى» و«المدام وماء السحاب» وما إلى ذلک مِن التركيبات والأوصاف، فامرؤالقيس يعتمد فی وصفه على حصر المعنى الكثير فی اللفظ القليل، فريق محبوبته خمر تسكر، وسحاب يمطر، وعطر يعبق، ولا شک أنه أراد من هذه التشبيهات المتلاحقة التدليل على طيب ريق صاحبته:

كأن المــدام وصوبَ الغما ... م وريح الخزامَى ونَشر القطرْ
يعــلّ بــه بــرد أنيابهــا ... إذا طرب الطائر المســتحرْ

(امرؤالقيس، ۱۹۸۴م: ۱۵۸-۱۵۷)

ويتجلى الأثر النفسی للريق فی صورة عبيد بن الأبرص، الذی شبه ريق محبوبته بمدامة مشعشعة ممزوجة بماء سحاب يسير شاربها مختالاً مرخی الإزار لشدة أثرها فيه، ويؤكد قيمة تلک الخمر المحفوظة فی أباريق الفضة، بما تدّره من ثمن بريح لبائعها ليوحی إيحاءً خفياً بقيمة المرأة وعزتها:

أمن أم سلم تلک لا تستريح ... وليــس لحاجات الفؤاد مريح
إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمُ مدامة ... مشعشــة ترخی الإزار قديح
بماء سحاب فی أباريق فضة ... لها ثمــن فی البائعيــن ربيح

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۳۰-۲۹)

الحيوانات والمطر

المطر هول الوجه الساكن من الطبيعة الذی تغنی به الشعراء على امتداد العصور واختلاف فتراتها الأدبية والسياسية؛ وهناک وجه آخر للطبيعة تربّع على عرش الذاكرة الأدبية، وخط معالمه فی الإنتاج الشعری، هذا الوجه، حیّ نابض يعيش مع الإنسان ويتفاعل معه منذ بدايته. إنه هو الحيوان، هذا الكائن الحّی الذی ارتبط مع العربی فی صحرائه برباط قوی أساسه تبادل المنفعة، وإن كان اعتماد أحدهما على الآخر يفوق

اعتماد الثانی. لذلک أحب الإنسان العربی الحیوان، وانساب وصفه علی لسانه انسیاب قطرات المطر التی عشقها، فتتبع هذا الحیوان فی حیاته وطرق معاشه وخطرات نفسه، وعاشر الألیف منه، وطارد الوحشی الشارد.

وحین صور الشعراء الحیوان، وجَسّموا معاناته مع الطبیعة الساکنة المتمثلة فی ظاهرة المطر، لم یقصدوا فقط بیان مدی التفاعل بین وجهی الطبیعة المختلفین، ولکن أسقطوا معاناتهم فی هذه الحیاة علیها لیرمزوا إلی مشاعر کثیرة تجتاحُ نفوسهم. وهنا تذکر بعض النماذج فی هذا الموضوع من أبیات الشاعرین امرئالقیس وعبید بن الأبرص.

فامرؤالقیس هو الذی یشبه سرعة فرسه وانطلاقه خلف ثور الوحش بغیث العشی الغزیر الأقهب الذی یمیل لونه إلی الکدرة مع البیاض ونعته أیضا بالمتودق، والمتودق من الودق وهو الشدید من المطر، لیوحد بینهما فی السرعة والانطلاق:

وأدرکهــن ثانیاً مــن عنانه　　　کغیث العشی الأقهب المتودق
فصاد لنا ثوراً وعیراً وخاضباً　　　عداءً ولم ینضَح بماءٍ فیعرق

(امرؤالقیس، ۱۹۸۴م: ۱۷۴)

وفی رحلة صید أخری ینطلق فرسه کشؤبوب العشی، بوابل من الجری المتواصل مثیرا عاصفة من الغبار، الذی غطی کل شیءٍ أمامه کأنه الدخان:

وولی کشـؤبوب العَشیِّ بوابل　　　ویخرجن من جعدٍ ثراه منصب

(نفس المصدر: ۵۰)

وفی تشبیه سرعة ناقته یشبه بالجهام، وهو السحاب الذی أراق ماءه فأخذ یسیر سیراً خفیفاً سریعاً تحدوه الریاح فی أفق السماء، یقول:

تروح إذا راحَت رَوَاحَ جَهامةٍ　　　بِإثـر جهـام رائـح متفرقِ

(نفس المصدر:۱۷۰)

وأمّا عبید بن الأبرص فجمع فی تصویره لقصة ثور الوحش بین خیر المطر وشرّه، فقد صّور الثور وهو ینعم بطیب العیش فی وسط روضة غناء جادها الربیع بولیه، فغزرت وطال نبتها وفاحت بالعبیر والزعفران، إلا أنّ هذا النعیم والصفاء لم یدم، فقد فاجأت هذا الثور لیلة سوداء مظلمة من لیالی رجب الباردة، بأمطارها الغزیرة التی أخذت تسحّ علیه

سحّاً، ففرّ إلی شجرة الآلاء ليحتمی من مطرها وبردها وكل عضو منه يرعد:

وكأن أقتـادی تضمن نِسـعَها ... من وحـشِ أورال هبيط مفردُ
باتـت عليـه ليلـة رجبيـة ... نصبا تسـحُّ المـاء أو هی أبرد
ينفـی بأطراف الألاءِ شـفيفها ... فغدا وكلّ خصيـل عضويرعَدُ
كالكوكب الدُری يشـرقُ متنهُ ... خرصـا خميصا صلبُـهُ يتأودُ
فی روضة ثلـجَ الربيعُ قرارَها ... مَوليـة لـم يسـتطعها الـرُّوَّدُ
وبـدا لكوكبها صعيـدُ مثل ما ... ريحَ العبيرُ علی الملاب الأصفد

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٤٤-٤٣)

النتيجة

بعد كل ما تقدم من استقراء وبحث لموضوعنا هذا وبعد ارتياد دروبه الشاقة وهالاته الغامضة، حان وقت اجتناء قطوفه وإن لم تنضج بعد وتكتمل.إن نظرة عامّة لما سبق تؤدی إلی النتائج والآراء التالية:

١. إن وصف الطبيعة فی الأدب العربی وصفاً قديماً، والشعراء قاموا بوصف البيئة الصامتة والمتحركة فی أشعارهم ووصف الطبيعة الصامتة رائج عند شعراءنا الثلاثة أيضاً وكلهم علی مستوی واحد.

٢. إن اهتمام الشعراء بالماء اهتماماً بالغاً وقاموا بوصف الماء فی جميع صفاته وتشبيهاته، ونجد الشعراء كلهم مهتمين بهذا الأمر وأتوا بأبيات كثيرة فی هذا الموضوع. فامرؤالقيس وعبيدٌ أتيا بوصف الماء وذكره أكثر اتساقا من النابغة الذبيانی، لكنّ النابغة رغم أنه وصف الماء وشبهّه أيضاً، قام بهذا الأمر فی أبيات متفرقة ونری هذه الأبيات فی ديوانه من هنا وهناك.

٣. إن السحاب والرياح والرعد والبرق من معطيات المطر فهی حظيت بنصيب وافر فی التوصيف والتشبيه فی أشعارهم، لكن النابغة الذبيانی، فهو قام بذكر السحاب والرياح ولم يذكر الرعد والبرق إلا خلال توصيفاته للسحاب وشأنه فی هذا الموضوع ليس كشأن صاحبيه، فهما امتازا الرعد والبرق من السحاب فی كثير من أبياتهما. والشعراء

كلهم قاموا بذكر الرياح وتوصيفاتها، لكنهم لم يذكروا شيئاً مِن الدبور وهى ريح تقابل الصبا ومهبّها جهة المغرب.

٤. إن أكثر الأوصاف للمطر وتشبيهاته، متشابه لدى هولاء الشعراء، فى الاسم وفى الصورة وفى التركيب، ونجد التفاوت قليلا فيها، وأكثروا بتوظيف صورة المطر فى موضوعاتهم المختلفة حتى بدت واضحة جلية فى كل معالمها وجزئياتها، وكانوا ينشدون فى ذلک صور الكمال والوصول إلى ما هو مثالى فى كل موضوعاتهم.

٥. إنّ ذكر المواضع التى تجمع فيها الماء كثير فى دواوين الشعراء الثلاثة لكن المواضع التى يجرى فيها الماء ليس لها شأن كالمواضع التى يجتمع فيها الماء.

فلها ذكر قليل عند هؤلاء الشعراء ولاسيما عند عبيد بن الأبرص والنابغة الذبيانى. نجد أبياتاً كثيرة فى ذكر البحر والنهر وتوصيفاتهما فى دواوين الشعراء هؤلاء، لكنهما لم يحظيا بنصيب وافر كالماء والمطر. فهؤلاء الشعراء ألموا بذكر الماء والمطر أكثر من إلمامهم بالبحر والنهر.وأخيرا استطاع هذا البحث أن يثبت أنّ وصف المطر يشكل جانباً هاماً من جوانب الشعر العربى عبر العصر الجاهلى، هذا الاهتمام المنبثق من أهمية المطر فى حياته فى شبه الجزيرة العربية التى يغلب عليها الجفاف وندرة المياه . وأنّ صورة المطر من أهم العناصر التى شكلت شعرهم وتصاويره الفنية والأدبية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأبرص، عبيد. ١٩٥٧م. *ديوان*. تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار. مصر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

ابن أوس، أبوزيد سعيد بن أوس الأنصارى. ١٩١٠م.*كتاب المطر*. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى. ١٩٦٣م.*كتاب وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع*. دمشق: مطبوعات المجمع العلمى العربى.

ابن سلام، محمد بن سلام الجمحى. ١٩٧٤م. *طبقات فحول الشعراء*. مطبعة المدنى.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن المكرم الأنصارى. لاتا. *لسان العرب*. مصر: دارالمعارف.

امرؤالقیس. ۱۹۸۴م. *دیوان*. تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. مصر: دارالمعارف.
العسکری، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعید. ۱۳۵۲ق. *دیوان المعانی*. لانا.
المیدانی، أبوالفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهیم النیسابوری. ۱۹۵۵م. *مجمع الأمثال*. تحقیق محمد محیی الدین عبدالحمید. مطبعة السنة المحمدیة.
النویری، أحمد بن عبدالوهاب. ۱۹۲۹م. *نهایة الأرب*. مصرة دار الکتب المصریة.